الفصل العاشر

العيون الطامعة

طالما أن العلاقات التجارية بين أفريقيا والخارج تركزت على تجارة الرقيق، فإن الاتصال ظل ضعيفًا والتأثير غير مباشر ولم يكن لدى تجار الرقيق أي دافع يحثهم على التوغل داخل الأراضي بعيدًا عن حصونهم وقلاعهم التي بنوها على السواحل لهذا الغرض.

ونظرًا للصعوبات التي يصادفها تجار العبيد في الداخل أو الوسطاء فضلا عن الجو القاتل والأمراض الفتاكة والمخاطر التي يتعرضون لها، فإنهم كانوا يشترون العبيد بأبخس الأثمان في الداخل ويبيعونهم على الساحل بثمن مرتفع. فقد كان النفوذ الأوروبي قويًّا وعميقًا على تجار الرقيق حتى أنهم لم يفكروا في ترك التجارة إلى غيرها. بالإضافة إلى أنها تجارة مربحة فلم يحسنوا غيرها من التجارة. إلى جانب ذلك لم يستيقظ الضمير ليشعر بالشرور وفظاعة الرق إلا متأخرًا. وفي الأيام الأولى للاستعمار البرتغالي، كانت الإرساليات تقوم على آلاف المواطنين واتخذت حكومة البرتغال كل الاحتياطات الكفيلة بمنع البابا أن يبعث بإرساليات من طرفه ما لم تكن تلك الإرساليات تحت سيطرتها.

ولم يكن مجديًا أو عمليًّا إيجاد اتصالات مباشرة مع أفريقيا قبل أن تحقق حركة المقاومة لتجارة الرقيق حتى أوروبا انتصارًا فعالًا وإيجابيًّا.

ولقد لقيت تجارة الرقيق أول نكسة لها في بريطانيا، ففي منتصف القرن الثامن عشر استطاعت جزر الهند الغربية أن تصبح أغلى درة في التاج البريطاني؛ بفضل ما أنتجه العبيد من زراعة قصب السكر. ولما عاد المزارعون إلى بريطانيا ومعهم عبيدهم، أثار ذلك سخط المسيحيين المتطرفين وبرغم ما بذله الأسياد من جهد، فإن المحاكم البريطانية أعلنت أن القانون البريطاني لا يعرف العبودية وقد كان حكم اللورد ما نسفيلد المشهور في سنة ١٧٧٢ أول انتصار حققته جماعة الإنجيل التي نظمت حملة شعواء ضد تجار الإنجليز الذين يتاجرون في العبيد في بادئ الأمر وبعد ذلك بالنجاح نفسه ضد نظام العبودية في جميع مستعمرات بريطانيا.

وفي سنة ١٨٠٧، أُجبر البرلمان على إصدار القانون الذي يحرم الاتجار في الرقيق وبعد ذلك بأربع سنوات تبع ذلك قانون آخر يشدد العقاب على كل من يتجر في الرقيق ويمكن القول إنه في سنة ١٨١١ انتهى الاتجار في الرقيق بالنسبة لبريطانيا.

وبدأت بريطانيا في محاربة الإتجار في الرقيق ومقاومته في الدول الأخرى. ولم يكن ذلك بدافع حب البشر أو العدالة الذاتية وإنما لأسباب تجارية معقولة؛ فطالما أن تجارة الرقيق سهلة ومربحة أكثر من أي تجارة أفريقية أخرى، فيجب إذًا القضاء عليها دوليًّا قبل ظهور أي تجارة مشروعة بين أفريقيا وأوروبا.

وقد تعاونت الدانمارك مع بريطانيا للقضاء على الرق وبعد ثلاث سنوات أصبحت تجارة الرقيق غير مشروعة في الولايات المتحدة الأمريكية

عام ١٨٥٨ وتبع ذلك هولندا سنة ١٨١٤. وتحت ضغط بريطانيا حذت جميع أغلب الدول البحرية حذو تلك الدول وذلك عقب حروب نابليون إلا أن البرتغال وإسبانيا– حيث الإتجار في الرقيق أصبح مشروعًا عام ١٧٨٩– لم يحرما تجارة الرقيق وإنما نجحت الدول الأخرى في جعلها يقصران تجارتهما الرذيلة في بحار نصف الكرة الجنوبي فقط.

وما أن جاء عام ١٨٤٢ حتى أصبحت تجارة الرقيق عبر المحيط الأطلنطي تجارة محرمة على رجال البحر التابعين لدول أوروبا وأمريكا وليس معنى ذلك انتهاء تجارة الرقيق؛ فلم يكن لدى أي دولة ما لدى بريطانيا من عزيمة ووسائل بحرية لتطبيق قوانينها في أعالى البحار، إلا أن فرنسا والولايات المتحدة تعاوتنا ببعض الجهود لمقاومة تجارة الرقيق ثم شنت بريطانيا حملة دبلوماسية لتمنح الدول الحق للأسطول البريطاني للقبض على سفن الرقيق التي تبحر تحت أعلام تلك الدول. أثارت الحملة بطبيعة الحال استياءً كبيرًا، وفي الوقت التي أجبرت فيه البرتغال على القبول لم تقبل أمريكا أو فرنسا إعطاء بريطانيا مثل هذه السلطة أو القوة التي سعت إليها. ومن جهة أخرى فإن التوسع في أمريكا وكوبا والبرازيل في الزراعة، وخاصة زراعة القطن بعد نجاح زراعة القصب، أدى إلى الحاجة إلى الأيدي العاملة بشدة وطالما كان هناك سوق مجز للعبيد، فإن الأفراد يخرجون على قوانين بلادهم. وبعد ذلك قامت بريطانيا بحملة ثالثة للضغط على ملوك ورؤساء الدول الأفريقية لمنع تصدير العبيد من أراضيهم وأخذت فرنسا تحذو حذوها من آن لآخر، وبذلك بدأ ظهور عنصر جديد من عناصر الاتصال بين أفريقيا وأوروبا وأخذ هذا العنصر يتبلور.

ولم تنته بعد تجارة الرقيق من الجانب الأفريقي، بل بدأت تتبلور عندما توقف طلب العبيد على الشاطئ الآخر للمحيط الأطلنطي.

وظلت حركة مقاومة الرق في بريطانيا يغذيها الحماس الديني. أما طائفة البروتستانت، فقد كانت بطيئة بصفة عامة في فهم واجبها نحو الوعظ والإرشاد وشرح الإنجيل للبشر، وبقيت الكنائس المختلفة المذاهب مشغولة بمشكلات بقائها تكافح زهاء ثلاثة قرون. وفي نهاية القرن الثامن عشر، كانت جميع الدوائر الدينية في أنحاء أوروبا تدعو إلى المسيحية هؤلاء الذين لم يعتنقوها. وأول هذه الحركات هي اللوثرية في سنة ١٧١٢ وكانوا يلقبون بأخوان مورافيا وكل عضو فيها يعتبر نفسه مرسلًا إلى غير المسيحية. كما كانت جماعة المعمدانية أول من أسس جماعة للتبشير سنة ١٧٩٢ في الهند كميدان لنشاطها وتبعتها جمعيات أخرى للتبشير في المحيط الهادي وجنوبي أفريقيا وشرقيها وغربيها.

أما بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية في روما، فإن فكرة التبشير وإرسال الجماعات الإرسالية لأفريقيا لم تكن جديدة؛ فالإرساليات التي وفدت خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر إلى آسيا وأفريقيا وأمريكا كانت برتغالية أو إسبانية. وفي سنة ١٦٢٢ حاولت الإبراشية المقدسة أن تركز أعمال الإرساليات في روما وذلك بخلق الشعب المقدس لبث الدعوة ولكن أخرجت مستعمرات أسبانيا والبرتغال من دائرتها لأسباب اقتصادية ولم يتجدد هذا الاندفاع من جديد قبل مرور أكثر من قرنين. وكان أهم هذه الحركات التبشيرية بفرنسا في القرن التاسع عشر ثم أعيد تكوين شعب روح القدس في عام ١٨٤٨ وكان أعضاؤها يعملون في غربي أفريقيا في

جابون وفي جنوبي الكونغو وجنوب غربي أفريقيا وعلى الساحل الشرقي لأفريقيا. ثم ظهرت فيما بعد مؤسسة الكاردينال لافيجيري الفرنسية الأصل سنة ١٨٦٨ وعرفت باسم الآباء البيض وكان مركزهم في الجزائر ومنها يخرجون للتبشير في أواسط أفريقيا وفي منطقة البحيرات الكبرى وأوغندا في الشمال إلى روديسيا الشمالية في الجنوب ومن هذه الإرسالية ظهرت جمعية الرهبان والدومنيكان والجيزويت والقديس يوسف.

لم تصبح تلك الإرساليات أو العلاقات التجارية مؤثرة تأثيرًا مباشرًا على الأفريقيين قبل أن ينقشع جهل الشعوب الأوروبية بأفريقيا، وحتى نهاية القرن الثامن عشر لم تكن أفريقيا في نظر أوروبا إلا ذلك الساحل الذي لا يدل على ما يوجد بالداخل وبقي شمال أفريقيا جزءًا من الدولة الإسلامية التي ظلت منيعة في وجه المسيحيين من الغرب.

وقد تمكن الأوروبيون من الوصول إلى أعالي النيل، وهم متخفون في ملابس العرب ومن بين هؤلاء جيمس بروس، فاستطاعوا الوصول للحبشة ولسنار على النيل الأزرق ولم يكن الأوروبيون قد وصلوا إلى تلك المناطق؛ فلم يكن الأوروبيون يعرفون سوى جماعات في غربي أفريقيا والجزء الغربي من وسط أفريقيا وذلك خلال القرن الثامن عشر.

وعلى الرغم مما كتبه ليو الأفريقي والمحاولات التي قام بها الفرنسيون حتى السنغال خلال القرن الثاني عشر، فإن الاعتقاد كان سائدًا بأن خلف الغابات أراض زراعية حيث يزرع فيها القمح وترعى المواشي ويقوم التجار المسلمون ببيع منتجاتهم على ظهور الجمال حتى مصر والمغرب.

وحاول الأوروبيون عند اكتشافهم أواسط أفريقيا محاربة تجارة الرقيق وإحلال المسيحية والتجارة المشروعة محل الرق والعبودية. بدأت المحاولات من شمالي أواسط أفريقيا بوساطة حفنة من الإنجليز فقد نجح السير جوزيف بانك والسير جون بارو في إقناع حكومتيهما بفكرة اكتشاف أفريقيا فجاءت بعثات إنجليزية اكتشافية إلى بورنيو ومناطق الهوسا بعد اجتيازها الصحراء الكبرى وطرابلس خلال عام ١٨٢٣–١٨٢٥.

وقد تبع إخوان لاندر الطريق إلى البحر سنة ١٨٣٠، كما اكتشف الألماني هنريش بارت السودان الغربي والسودان الأوسط خلال عام ١٨٥٠– ١٨٥٥.

لم تساهم فرنسا بالكثير في تلك الاكتشافات وذلك بالنسبة لاندماجها في تجارة الرقيق ولتغلغلها السابق في السنغال وباستثناء رحلة ريني كايين في عام ١٨٢٧– ١٨٢٨ من ريونونز إلى تمبكتو وعبر الصحراء الكبرى إلى طنجة.

والجدير بالذكر أنه لا يمكن إغفال الدور الذي قامت به ألمانيا سواء في صورة اكتشافات أو إرساليات وقد اقتصر نشاط ألمانيا على أفريقيا الغربية. والرائدان الأولان في التبشير وفي الاكتشاف في أفريقيا الشرقية كانا عضوين ألمانيين من جامعة كرايف وريمان وهما أول من رأيا الثلوج تغطي قمم جبال كليمنجار. وخلال عام ١٨٤٧– ١٨٤٩. وبين سنة ١٨٦٢ و١٨٦٩، قام جيرهارد وروهلفر برحلته المثيرة في شمال الصحراء الكبرى وأكمل رحلته بعض الألمان، من بينهم جوستاف فاكتيجال الذي

اكتشف السودان بين بحيرة تشاد والنيل منطقة مونوروتابا سنة ١٨٢٠– ١٨٢٢ إذ كان إخوان مورافيا أول المبشرين البروتستانت الذين وصلوا إلى رأس الرجاء في سنة ١٧٩٢ في حين بعثته كانت أول من وصل إلى ساحل الذهب عام ١٨٢٨ وتبع ذلك بعثة بريمي عام ١٨٤٧.

ومن ذلك يمكن القول إن رغبة أوروبا في اكتشاف جنوبي أفريقيا وشرقيها لم تظهر إلا بعد أن ذللت المشكلات الجغرافية لأفريقيا الغربية، وكان البادئ في ذلك أيضًا هو الجانب الإنجليزي. وعلى الرغم من قيام الحدود بين المستعمرات، فإن الإرساليات كانت تجوب شمالًا وجنوبًا ومن ذلك بعثة دافيد لينفجستون الذي سافر من عام ١٨٥٣– ١٨٥٦ من الجنوب شمالًا حتى شلالات فيكتوريا ثم اتجه غربًا إلى لواندا وشرقًا حتى زمبيزي.

نشر لينفجستون اكتشافاته تحت عنوان (رحلات تبشيرية وأبحاث) وأثار هذا المؤلف حماس الإنجليز لفتح تلك البقاع للتبشير وللتجارة واهتمت الجمعية الجغرافية الملكية بمعاونة الحكومة فأرسلت برتون وسبيك إلى بحيرة تنجانيقا في عام ١٨٥٨ وسيبك وجرانت إلى فيكتوريا نيانزا ثم إلى منابع النيل في عام ١٨٦٢– ١٨٦٤ كما ساعدت هذه الجمعية ليفنجستون في رحلته إلى زمبيزي.

ثم قام المراسل الحربي ستانلي برحلة اكتشافية بمعاونة صاحب إحدى الجرائد الأمريكية من زنزبار إلى الكونغو واستقبله مندوب الملك ليوبولد ملك البلجيك عند ميناء مارسيليا، وستأتي نتائج ذلك الاستقبال في فصل

قادم. وأصبحت أفريقيا ميدانًا للبطولة سواء في إنجلترا أو أوروبا أو أمريكا بطولة خفتت فيها أنفاس حب البشرية؛ إذ أن كل تلك الاكتشافات كانت بقصد البحث في أصل الزنجي الأفريقي ومدى استجابته للتقدم البشري.

لم تفكر الحكومات بعقلية الإرساليات ولا بعقلية التجار بل كانت نظرتها أوسع؛ فالحكومات تعلم مثلا أن الحصول على زيت النخيل من أفريقيا لا يستمر إلا بحماية الأسطول. كما تعلم ألا يوجد مكان غير نيجيريا يجمع بين غزارة المحصول والطرق المائية الكفيلة بنقله إلى الشاطئ، بالإضافة إلى أنها كانت تفكر في أن دواب الحمل إذا أرسلت إلى الداخل لاستعمالها في نقل محصولات منطقة ما نفقت تلك الدواب خلال أسابيع. إذًا فلننتظر حتى تمد الخطوط الحديدية وهذا يستلزم بطبيعة الحال بعض التغيرات السياسية. وعلى ذلك فقد تركزت عيون كل حكومة على الحكومات الأخرى وتفتحت عيون أوروبا كلها على أفريقيا ولكن لم تستل بعد أوروبا سيفها.